﴿ اسرار البلاغة ﴾

ما وضع علم من العلوم وصار فناً مستقلاً يفرد بالتدوين والتصنيف الا واخذ الواضعون له قواعده العامة ومسائله الكلية من المعلومات انفسها بعد النظر فى جزئياتها بعين الاعتبار والتأمل فى علاها وفى اجتماعها وافتراقها واختلافها واتفاقها وغير ذلك من عوارضها الذاتية . ثم ما اتسعت دائرة علم وتشعبت مسائله وكثرت فروعه الا بمثل ذلك لان العلم هو المرآة التى تنطبع فيها صور المعلومات على ما هى عليها فى انفسها او هو نفس الانطباع والمرآة هي نفس العالم . هذا هو الشأن فى العلوم الحقيقية فمن ذهب فى العلم مذهب النظر الفكرى المحض والبحث فى عبارات المؤلفين من غير ملاحظة المعلومات يضيع العلم ولا تبقى عنده الا الجهالات الخيالية التى تتولد عنده من الابحاث اللفظية او النظرية العقيمة فتكون على مرآة العقل كالصدإ الذى يعلو المرآة فيفسدها ويبطل فائدتها . ومن هنا يتجلى للبيب ان ادعاء الفصل بين العلم والعمل باطل فلا يجوز ان يكون احد عالماً بفن كذا متمكناً منه وليس عنده معرفة بالمعلومات التى تصدق عليها مسائل ذلك العلم وقواعده بحيث يستعملها استعمالاً صحيحاً على ما هى عليه فى انفسها .

من العلوم الحقيقية التى معلوماتها ثابتة فى انفسها ويجب ان تكون مسائل العلم منطبقة عليها علوم اللغة مفرداتها واساليبها فمن لم تعرض عليه مع تعلم قواعدها او قبلها او بعدها لا يمكن ان يكون عالماً بها علماً صحيحاً يقدر

به على العمل وهو الاتيان بالكلام العربي الصحيح قولاً وكتابة على اسلوب العرب انفسهم وما اهتدى العلماء الواضعون لهذه العلوم الى وضعها الا بعد اطلاعهم الواسع على الكلام العربي الفصيح والنظر فيه على الوجه الذي قررناه آنفاً . فخلف من بعدهم خلف جعلوا قواعد هذه العلوم نظرية محضة واشتغلوا بها لذاتها ثم شغلوا عنها ايضاً بالبحث في اساليب المصنفات التي وضعت بعد فساد ملكة اللغة فاضاعوا العلم واللغة جميعاً وصار احدهم يقضي عمره بمدارسة علوم العربية وبلاغتها ولا يقدر في نهايته على فهم الكلام البليغ فضلاً عن الاتيان بمثله قولاً او كتابة . وقد ستروا على انفسهم هذا الجهل بقاعدة وضعوها كذباً من عند انفسهم وهي « ان العلم لا يستلزم القدرة على العمل » وفرعوا من هذا الاصل فرعاً مثله كما يبنى الفاسد على الفاسد فقالوا « ان فحول علماء البلاغة لم يكونوا بلغاء » ! ! !

هذا المرض العضال لا علاج له الا الرجوع بالعلوم الاسلامية الى الوراء بضعة قرون والاخذ بكتب الائمة الذين دونوا العلوم ووضعوا الفنون ومن يقرب منهم وهو الطريق الذي سار عليه مولانا الاستاذ الاكبر والمصلح العظيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وان خالفه فيه من علماء الازهر من يعجز عن فهم كتب القدماء فضلاً عن تدريسها ويثقل عليه ان يقرن العلم بالعمل لان ما عنده من العلم خيالات لا تهدي الى عمل فبعد ان سعى بطبع البصائر النصيرية في المنطق واتم قراءته درساً في الازهر وجه نظره الثاقب لطبع كتب امام البلغاء بل واضع فنون البلاغة ومؤسسها الشيخ عبد القاهر الجرجاني (سقى الله ثراه) ولعبد القاهر كتابان في البلاغة مشهوران ينقل عنهما البلغاء احدهما اسرار البلاغة

والثانى دلائل الاعجاز . لم يوجد فى القطر المصرى نسخة من الكتاب الاول ولكن كان يوجد نسخة منه فى طرابلس الشام فاستحضرتها باسم الاستاذ وبعد ما نظر فيها رأى ان فيها غلطاً نسخياً وسقطاً وعلمنا ان فى بعض مكاتب الاستانة العلية نسخة اخرى فامر الاستاذ بعض طلاب العلم النبهاء فذهب الى الاستانة مخصوصاً وقابلها عليها فخرج لنا من النسختين نسخة صحيحة وتولى مولانا الاستاذ تصحيحها وضبطها بعد ذلك بنفسه وامرنا بطبعها فباشرنا بالطبع وباشر هو بتدريس الكتاب فى الجامع الازهر فأقبل على حضور درسه مع المجاورين كثيرون من العلماء وكبار الموظفين والكتاب والشعراء واساتذة المدارس الاميرية .

اما عبارة الكتاب فهى فى الطبقة العليا من السلاسة والمتانة واسلوبها عربى صريح لا عرفى معقد كمكتب السعد فمن دونه ويكثر فيها من الشواهد والامثال ويتفنن فيها بالوصف ويجلى المعانى بأبهج الصور واحسنها فهو علم وعمل فى آن واحد فاجدر به ان يطبع فى النفوس ملكة البلاغة والبيان وهاك نموذجاً منه (واما الحصول عليه فيعلم من الاعلان الذى على غلاف المنار) قال عبد القاهر

القول فى الاستعارة المفيدة

اعلم ان الاستعارة فى الحقيقة هى هذا الضرب دون الاول وهى أمدّ ميداناً ، واشدّ افتناناً ، وأكثر جرياناً ، وأعجب حسناً واحساناً ، واوسع سعة وابعد غوراً ، وأذهب نجداً فى الصناعة وغوراً ، من ان تجمع شعبها وشعوبها ،